التحصينات الدّفاعية الإسلامية ببجاية

الدكتور: عزوق عبد الكريم
جامعة الجزائر2 – الجزائر

الملخّص:

تناول موضوع البحث التحصينات الدّفاعية التي عرفتها مدينة بجاية بالمغرب الأوسط في العهد الإسلامي منذ تأسيسها سنة (460 هـ/1067 م) في عهد الناصر بن علناس الحمادي و هذا بعد خراب قلعة بن حماد بالمسيلة إلى أواخر الحكم العثماني، و تشمل كلّ من القلاع و الحصون و الأبراج و الأسوار و الأبواب و غيرها و التي ما زالت قائمة لحد الآن و تؤرّخ لكل فترة من الفترات التاريخية التي عرفتها المدينة في العهد الإسلامي، مركزين الدّراسة على الناحيتين التاريخية و الأثرية لكلّ معلم من المعالم الأثرية الباقية، محاولين استنتاج أهم المميّزات التي امتازت بها التحصينات الدّفاعية للمدينة موضوع الدّراسة، و على تطور الأساليب الدّفاعية و الهجومية و آلات الحصار المستخدمة، كما توحي أيضا هذه الإستحكامات بمدى تقدّم العمارة العسكرية في المغرب الأوسط من حيث مواد بنائها واستراتيجية إقامتها كما تعطينا أيضا صورة واضحة و نموذجا لتحصينات المدن الإسلامية في المغرب الأوسط.

الكلمات الدّالة :بجاية، تحصينات، عسكرية، قلاع، حصون، أسوار، أبراج

Summary:

This present work deals with the defensive fortifications known in Bejaia, in the middle Maghreb, during the Islamic era since its foundation in (460 AH / 1067 AD).This was during the reign of Nasser Bin Alnas El Hammadi; exactly after the destruction of Beni Hammad castle in Msila until the late Ottoman rule. These include all castles, forts, towers, fences, doors and others which remain standing today chronicling each of the historical periods that this city had witnessed in the Islamic era. The focus of this study is on both historical and archaeological aspects of each remaining archaeological monuments, trying, thereby, to consider the most important features that characterized the defensive fortifications of the city in question. And on the development of defensive and offensive methods and war machines for sieges used. These fortifications reveal the degree of military architecture's evolution in Central Maghreb in terms of construction materials, and the establishment strategy .it also provides us with a clear picture and a model of fortifications of Islamic cities in Central Maghreb.

Key words: Bejaia, fortifications, military, castles, forts, fences, towers

مقدمة:

تعتبر مدينة بجاية التي تقع في الناحية الشمالية الشرقية للجزائر و التي تبعد بحوالي 230 كلم شرق العاصمة الجزائرية، من العواصم الإسلامية التي أدّت دورا كبيرا في تاريخ المدن الأثرية الإسلامية بالمغرب الأوسط لما قدّمته من إسهامات في مجال العمارة و العمران للحضارة الإسلامية، و لعلّ ما تبقّى من معالمها الأثرية التي تعود إلى مختلف الفترات التي عرفتها المدينة في العهد الإسلامي خير دليل على ذلك.

تعتبر التحصينات الدّفاعية إحدى المعالم الأثرية التي مازالت تحتفظ بها المدينة من أبواب و أسوار و قلاع و حصون و ذلك منذ تأسيسها على يدّ الناصر بنو علناس الحمّادي سنة (460هـ/1067م) بعد هجرة الحماديين من قلعة بني حمّاد بالمسيلة إلى بجاية العاصمة الثانية لهم و التي كانت تعرف آنذاك بالنّاصرية نسبة لمؤسّسها، دون أن ننسى العهد الموحدي و الحفصي و العثماني وكلّها فترات تاريخية مرّت بالمدينة و تركت بصماتها واضحة في تاريخها و حضارتها. و عليه فإنّ هذه الدّراسة تتناول ما تبقى من المنشآت العسكرية بالمدينة، و التي تعود إلى الفترات التاريخية المذكورة.

تعريف المنشآت العسكرية:

يقصد بالمنشآت العسكرية، تلك الاستحكامات التي أنشأت لغرض دفاعي بالدرجة الأولى وبمختلف أنواعها، ومنها: المحارس والأبراج، والقلاع والمناظر، والمنارات والأسوار والخنادق والأربطة والحصون والقصبات التي تجمع سكن السلطان مع إدارته ودواوينه، ولها جانب دفاعي بحيث تحاط عادة بالأسوار لعزل الحاكم عن رعيته. وقد لجأ الحكام في العهد الإسلامي إلى تحصين جميع النقاط التي تتحكم في مداخل المدن والموانئ ويبنون الحصون والقلاع على أقرب مرتفع يشرف على المدينة وتتخذ كصمام أمان.

إن المنشآت العسكرية لها صلة قوية بالدين الإسلامي، بحيث أنه يقدس حياة الفرد وحياة الجماعة، وإزهاق الروح في الإسلام حرام مطلق طبقا لقوله تعالى:" مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا" (المائدة- الآية32)، مما استوجب على المسلمين العمل على حماية هذه الأرواح للأفراد والجماعات، وهذا لا يتم إلا بإقامة منشآت دفاعية من جهة، ومن أجل الحماية من الغزوات الخارجية من جهة أخرى.

و تشير المصادر مثل "ابن حوقل" و "الإدريسي" و "البكري" في أكثر من موضع على أنّ المسلمين قد بنوا سلسلة من المباني العسكرية من أقصى الشمال الغربي للشام على شريط المحيط الأطلسي، وانه يمكن الهجوم على العدو في ليلة واحدة من عكة بفلسطين إلى سبتة وطنجة بالمغرب الأقصى.

ومن ضمن الوسائل التي يتم فيها الاستشعار بقدوم العدو، إشعال النيران ليلا، وإثارة الدخان أو الحمام أو المرايا العاكسة نهارا. وقد كانت هذه المنارات والمحارس مبنية بطريقة يمكنها من مشاهدة ما يعطيها البرج أو المنارة من معلومات.

أما من الناحية الطبوغرافية، يتدرج الحوض الغربي عن الشرقي تدريجيا بطريقة تسمح ببناء المنارات التي تكون سلسلة متتالية.

والواقع أن هذه المباني كلها موجودة في السواحل وفي المدن في فترات متتالية من العصر الإسلامي.

ومع مطلع القرن 3هـ/9م أصبح المسلمون سادة البحر إثر حملة "أسد بن الفرات[1]" أولى الحملات التي مكنت المسلمين من النيل من الأعداء سنة 212هـ/827م وجاء على إثرها بناء دار لصناعة السفن في عهد "حسان بن النعمان"، وبعد التمكن على البيزنطيين أصبح البحر المتوسط حوضا إسلاميا من شرقه إلى غربه.

وما زال المغرب الأوسط (الجزائر) محتفظا ببعض النماذج حول وجود العمارة العسكرية، ممثلة في قلعة بني حماد ذات الصبغة العسكرية وموانئ الجزائر كهنين وبني صاف والغزوات بنواحي تلمسان، وكذلك تلمسان الحاضرة في العهد المرابطي، وأغادير وما كان يحيطها من أسوار وأبراج مازالت آثارها لحد الآن، وبجاية التي احتفظت ببعض النماذج التي سنتعرض إليها لاحقا بالدراسة والتفصيل.

وما تجدر الإشارة إليه أن المصادر التاريخية تذكر لنا الكثير، لكن معظمها اندثر مع عدم الاستقرار الذي عرفه المغرب الإسلامي لأنها كانت العمارة المستهدفة بالدرجة الأولى.

إن دراسة المعالم العسكرية تعني دراسة تقنية وأساليب الحرب، وتطور السلاح الذي يقابله تطور في المنشآت العسكرية بمختلف أنواعها من حيث تخطيطها المعماري وعناصرها ومواد البناء المستعملة فيها. ولقد شهد المغرب الإسلامي تطورا على درجة كبيرة من الأهمية مما يدل على الصراع والهجوم الذي تعرض له في جميع فتراته، ما اندثر من تلك المنشآت تحتفظ بذكره ووصفه بطون كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين وما هو قائم يمكننا من خلاله تتبع ذلك التطور.

1- حصن القصبة:

يذكر "حسن الوزان"[2] أن الإسبان بعد دخولهم بجاية قاموا بتحصين قلعة قديمة مجاورة للبحر بجانب دار الصناعة، ولعل المقصود منها قصبة بجاية اليوم، لكن هناك بعض المعالم الدالة على أن القصبة كانت موجودة قبل العهد الموحدي ببجاية (6 هـ/12م) وهو تاريخ دخولها من طرف "عبد المؤمن بنو علي مؤسّس دولة الموحدين" سنة 547هـ/1152م.

ويغلب على الظن أن عمارة القصبات قد ظهرت في بلاد المغرب الإسلامي منذ العهد الموحدي، أما قبله فليس لنا من النصوص التاريخية ما يذكر هذه القصبات، وقد تكون قصبة بجاية حيّا من أحياء الدّولة الحمادية (5هـ/11م) ضمن الأحياء الواحد والعشرون التي كانت تحتفظ بها المدينة، ثم بقدوم الحملة الموحدية تحولت إلى قصبة

[1]- أسد بن الفرات (توفي سنة 231هـ/828م)، فقيه خراساني الأصل تولى القضاء في القيروان فتح صقلية، و له "الأسدية" في فقه المالكية.

[2]- حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة أحميدة عبد الرحمن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 51.

وهي مقر الحكم لدى الموحدين، ثم أصبحت فيما بعد مقرا للدولة الحفصية حيث كان يتم فيها تقليد وتنصيب الأمراء وتتويجهم بوشائح الحكم فيها[3].

إن دار الصناعة الحمادية كان مقرها بالقصبة، ولنا أن نتساءل إن كان يحميها أبراج أو حصن صغير أم أن القصبة التي كانت في تلك الفترة في نطاق ضيق، ثم توسعت فيما بعد لتشمل منشآت معمارية أخرى خاصة في العهد الموحدي.

أما من حيث الموقع فهي تشرف على البحر من جهة، ومحمية من ناحية البر من جهة أخرى، كما أنها محمية من جهة البحر عن طريق حصن البحر المعروف ببرج سيدي عبد القادر، كما أنها أيضا محمية عن طريق الأبراج المنتشرة عبر السور، وكانت هذه الأبراج تتخذ أماكن مرتفعة من المدينة. والواقع أن مدينة بجاية محمية طبيعيا بسلسلة الجبال والتلال المحيطة بها من الشمال الغربي إلى الجنوب، ومن الجهة الشرقية للمدينة واد الصومام الذي ينبع من جبال و مرتفعات جرجرة جنوبا و الذي يعتبر عائقا يصعب اجتيازه[4]. تعتبر قصبة بجاية من الحصون الأكثر أهمية في المدينة وذلك من حيث موقعها على هضبة مرتفعة في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة، ومن حيث المساحة التي تشغلها، إذ أنّ شكلها العام عبارة عن مستطيل تقدر أبعاده بـ 155م طولا و70م عرضا[5] ولقد طرحت إشكالات حول تأريخها كما سبق الذكر، فـ"دوبيلي" مثلا يرجعها إلى العهد الإسباني، أمّا الآخرون فيرجعونها إلى عهد الموحدين[6]، وإن كنا نميل كثيرا إلى الطرح الثاني لأن الصور القديمة التي تعود إلى فترة استيلاء الإسبان على بجاية توضح وجود هذه المنشأة داخل الأسوار الحمادية بأبراجها التي يحتمل أنها تعود إلى الفترة الموحدية ولقد عرفت القصبة بعض التغييرات في عصور لاحقة، لكن الجهة الأصلية منها هي تلك الواقعة في الجهة اليسرى، وفي الجنوب الغربي للسور نظرا للتجانس الكبير فيما بينها. اما الجهة المقابلة للبحر فعرفت بعض التغييرات وذلك بمواد بنائية مسترجعة تعود إلى مختلف العهود التي عرفتها المدينة، وذلك بتعرضها لضربات المدفعية.

وللقصبة بابان: واحدة رئيسية تؤدي إلى المدينة، والأخرى ثانوية تؤدي إلى السهول المحيطة بها[7].

تعرضت القصبة للهدم سنة 1510م عندما اقتحم "بيدرو نافارو" بجاية بجيش قوامه 15000 رجل أمام العدد القليل من السكان الذي كان يقدر آنذاك بحوالي 8000 ساكن، ثم وضع حاميات عسكرية في الحصون القائمة لحراسة المدينة[8]، وكان يعرف حصن القصبة باسم (Le grand château). وفي العهد العثماني حاصر

---

[3]- نفسه، ص20.

[4]- Louis Salvator de Habsbourg, Bougie la perle de l'Afrique du nord, traduction de Viviane Jambert, France, 1999. p65.

[5]- Naima (Abderrahim), Essai de restitution urbaine de la ville de Bejaia, thèse de Magistère. EPAU, Alger 2002, p65.

[6]- Brunschving (R), **La berberie orientale sous les Hafsides de l'origine a la fin de XI siècle**, TI et II, maisonneuve, Paris, 1940-1947, p379.

[7]- Naima Abderrahim, op.cit, p103.

[8]- علي خلاصي، **التنظيمات والمنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث**، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 2004، ج1، ص308.

"صالح رايس[9]" مدينة بجاية سنة 963هـ/1555م، واتخذ من القصبة مقرا له أين كان يقيم (دون ألفونسو بيرالت Don Alfonse Peralte) مع بقية الجيوش. وبعد 1555م رممت الأسوار ودعمت الواجهة الأمامية، أما ممشى الحرس الذي كان يعلو أسوار القصبة فقد تهدم، ويتخلل الأسوار المتبقية من القصبة فتحات للرمي على شكل مزاغل حدد سمكها بـ 1,20م، وهي مبنية بالحجارة من الأسفل وبالآجر وبطبقة من الملاط بالقسم الأعلى، أما سمك الجدار في بعض الأماكن فقد حدد بحوالي 5م، أما في الجهة الجنوبية يبدو جدار التحصين بسيطا جدا نظرا لعلو المكان واستحالة الوصول إلى الأعلى، إذ يصل الارتفاع حوالي 50م عن مستوى سطح البحر، ويمتد من الشرق إلى الغرب في شكل تعرجات.

ولقد بينت بعض التنقيبات الأثرية التي أجريت على القصبة على وجود بعض الآبار والخزانات التي تتوزع على جميع مرافق وأقسام القصبة، والتي كانت تتزود منها بالماء وتشير المراجع إلى أن بها خمس خزانات تتسع لمائتي ألف لتر من الماء[10].

كانت المباني في القصبة تتوزع من الشرق إلى الغرب وفي نطاق تدرجي (صورة 01)، وتتكون القصبة من القاعدة الجنوبية الشرقية والمقابلة للبحر، وكانت قديما تحمي دار الصناعة، ومن آثار هذه الواجهة برج مربع الشكل في الجهة الشمالية الشرقية. ويعتقد الأستاذ "خلاصي" على أنه يعود إلى الفترة الحمادية[11]، ويبدو في الجدار الشرقي آثار غرفة للمراقبة بها فتحات التسديد ولم يبق منها إلا ممشى الحرس وبعض الشرّافات والمزاغل.

أما عن مواد البناء بالقصبة، فهي مبنية على حجر أساس كبير على شكل مداميك رومانية قديمة وأسوارها مزودة بأبراج وحصون، وتعتبر نموذجا حيا للعمارة الدفاعية في مدينة بجاية، إذ كانت تشكل مع القلاع الأخرى نقطة اتصال دقيق لمراقبة المدينة من أي عدوان خارجي خاصة في تلك الفترة التي تميزت بعدم الاستقرار، هذا ويعلو المدخل كتابة تشير إلى تاريخ بنائها (صورة 02).

2- حصن سيدي عبد القادر:

يعرف الحصن أيضا باسم "حصن البحر"، وأعيد بناؤه من طرف الإسبان ويعود تاريخه إلى العهد الحمادي (5هـ/11م) والحفصي (8هـ/14م)، حيث كان برجا للمراقبة آنذاك، ويقع في الحدود الجنوبية الشرقية للمدينة، ويسمح له موقعه الجغرافي بمراقبة الساحل المشرف على شاطئ سيدي يحي، والطريق المؤدية إلى القصبة.

يقع الحصن على قمة هضبة صخرية ويتخذ شكلا يقترب من المستطيل (شكل 01) وتقابل واجهته الجنوبية جهة البحر مشكلة عرض المستطيل، أما الضلعان المستطيلان فيتجهان جهة الشمال ويسمحان بمراقبة فعالة على الجهة الغربية ناحية شاطئ سيدي يحي. أما الجهة الشمالية من الحصن فتتخذ شكلا منحنيا يسمح بمراقبة واسعة ناحية الجبال المقابلة.

---

[9]-صالح رايس، تولى الحكم في شهر جمادى الأولى سنة 959هـ/1552م، وهو أوّل حاكم عربي يحكم الجزائر باسم الأتراك.

[10]- Louis Salvator, op.cit, p 65.

[11]- علي خلاصي، مرجع سابق، ص306.

تضرب جدران الحصن في البحر، وهي من مادة الحجارة الكبيرة، وأحيانا من الحجارة المتقنة القطع من مختلف الأحجام (صورة 03). تقدر مقاسات الحصن بحوالي 56م طولا و18م عرضا[12]، ويتكون من طابق أرضي به أربع غرف تحوي الواحدة منها حوالي خمسين رجلا، وعلى مساحة مسطحة علوية ناحية حدود المستطيل المقابل للجبال ناحية الشمال، وهذه المساحة العلوية بها شرافات وهي مخصصة للخيالة، ويتخللها أربعة عشر فتحة موزعة على مختلف الجهات من الحصن، هذا بالإضافة إلى طابق تحت الأرض، توجد فيه مخازن مغطاة بأقبية وضيقة وعلى مستويات مختلفة وتتصل فيما بينها بواسطة ممرات وسلالم. أما واجهات الحصن من الخارج فهي مسطحة وخالية من الفتحات نحو الخارج. كان الحصن في القديم بموقعه الإستراتيجي يحمي قصر اللؤلؤة في العصر الحمادي، ثم اختاره الإسبان لغلق جدار التحصين، وكان يمتاز بتشييده على مسطحات تنحدر من الغرب إلى الشرق، وفتحت بجدار التحصين فتحات للقناصة تسمح بعرقلة رجال الحملة من نزول البر أو الاقتراب من المرسى[13].

وحصن سيدي عبد القادر بشكله هذا يختلف كليا عن حصن القصبة وحصن برج موسى من حيث الشكل والتخطيط. أما عن مواد بنائه فهي الحجارة المصقولة، ثم ألصقت ببعضها البعض بطريقة فوضوية، ويغلب على الظن أن تكون هذه الحجارة مجلوبة من مبان رومانية قديمة بالمنطقة، كما كان يحتوي على خزانات للمياه[14]، ولقد تعرض الحصن لبعض الاهتزازات الناجمة عن الزلزال الذي ضرب المدينة في شهر أغسطس من سنة 1856م[15].

3- برج موسى:

يعتبر من أحسن الحصون التي مازالت محافظة على شكلها المعماري، والتي مازالت قائمة لحد الآن، ولقد أضيفت له بنايات في سطحه العلوي تعود للحقبة الفرنسية.

بني برج موسى على أنقاض قصر النجم الذي كان "المنصور" قد شيده ويعتبر ضمن القلاع الهامة في بجاية (صورة 04)، ولقد احتل موقعا إستراتيجيا يشرف من خلاله على الميناء من جهة، وعلى القصبة وبرج سيدي عبد القادر من جهة أخرى، ولقد بني بطريقة جد محكمة، ويتخذ شكله العام مربعا على جانبيه إضافات على شكل جناحين من ناحية الشرق والغرب (شكل 02).

أما عن الموقع الذي احتله برج موسى فقد سحر كل الدويلات التي تعاقبت على حكم بجاية من الرومان إلى الفرنسيين، مما جعله يؤدي دورا بارزا في تاريخ المدينة. ففي العهد الروماني كانت المنطقة محمية بنقطتين حراسيتين تعرفان فيما بعد ببرج موسى وبريجة. أما في العهد الحمادي فنتج عن التطور المعماري الراقي لمدينة بجاية، بناء مجموعة من القصور ومن بينها قصر النجمة الذي يشغل مكانه اليوم برج موسى الذي كان يعرف في العهد الإسباني باسم (Le fort imprerial)، وذلك بأمر من "شارلكان Charles quint" سنة 1548م[16].

---

[12]- Naima Abderrahim, op.cit, p110.

[13]- خلاصي، مرجع سابق، ص313.

[14]- Feraud (Ch), Notes sur Bougie. In. Revue Africaine, 3ème année, N°13.1858. OPU, Alger. 1985p51.

[15]- Louis Salvator, op.cit, p81.

[16]- Naima Abderrahim, op.cit, p107.

أما في العهد العثماني فكان البرج مسرحا لحروب ضارية مع الإسبان، حيث تمكن سبعة من رجال المدينة المتصوفة باستعمالهم السلالم لاقتحام البرج ولكن ماتوا في عين المكان، ومع مرور الوقت تم فتح البرج والاستيلاء عليه بعد اقتحامه وإبادة من فيه من الإسبان، واعترافا بشجاعتهم بنى لهم "صالح رايس" أضرحة[17]. وإلى وقت قريب كان المكان محل زيارة وتقديس من أهالي المدينة. وبعد الاستيلاء أعاد العثمانيون بناءه واستعملوه كحصن دفاعي عن المدينة.

ويتكون البرج من طابق أرضي يتكون من ثلاث أقبية كبيرة علوها 9م وعرضها 6م، أمّا الطابق الأول فيتكون من قاعة كبيرة بها عشر فتحات للإضاءة والتهوية تتوزع على جدرانها، بينما الطابق الثاني وهو المستوى الوسطي، فلقد أضيف إلى أصل البناء غرف بالجهة الجنوبية تغطي سقف المدخل والقبو الذي يكونه، هذا بالإضافة إلى بعض الزيادات بطريقة انسجمت مع البناء ليصبح في العهد الفرنسي يعرف باسم (حصن برال Le fort Barrale).

أما الطابق الثالث فلا يختلف عن سابقه في جزئه الجنوبي، حيث نجد خمس غرف مماثلة لغرف الطابق الثاني. ويوجد بهذا الطابق عدة فتحات تسمح بمراقبة المدينة والفحص والأحواز الشمالية[18]، وتحاط من الجهة الجنوبية والشرقية والغربية بسور صغير سمكه حوالي 40سم وعلوه حوالي 1,50م.

تتميز جدران الحصن بسمكها الكبير خاصة الشمالية منها والمقابلة لجبل قوراية والتي يصل سمكها على 6م. أما الجدران الداخلية والخارجية فبنيت من مادة الآجر وبها فتحات على شكل كواة ومزاغل، ويتم الاتصال بين المستويين عن طريق سلم داخلي.

4- قلعة بني عباس:

نجد خارج مدينة بجاية أن كل القرى المنتشرة في حوض الصومام تتخذ أماكن مرتفعة في قمم الجبال كما هو الشأن في قرية "ترونة" ببني معوش، وقرية "أسرافيل" بالقرب منها، وكذلك قرية "الجابية بني خيار" وغيرها كثير، والتي يصعب الارتقاء إليها وكان بعضها محاط بسور تفتح عليه مجموعة من الأبواب، غير أن أهم قلعة أدت دورا بارزا في تاريخ المنطقة هي قلعة بني عباس، التي تقع ضمن سلسلة جبال البيبان، والتي تحتل موقعا إستراتيجيا بالغ الأهمية (**صورة 05**)، إذ يتشكل من هضبة على ارتفاع 1050م على مستوى سطح البحر وجبلها "تقربوست" على ارتفاع 1297م، وتحدها من جهاتها الثلاث أودية عميقة يتراوح عمقها بين 500 و 600م، ويصلها بالجهة الرابعة شريط ضيق يتصل بالجبال المحيطة بها وتحده مرتفعات شديدة الانحدار[19]، ويبدو أن المدينة قد أخذت اسمها من "العباس بن عبد العزيز مؤسّس إمارة المقرانيين في القرن 9هـ/15م بأعالي جبال القبائل"[20].

---

[17]- Feraud (Ch), Notes sur Bougie…, p49.

[18]- خلاصي، مرجع سابق، ص314.

[19]- جمال صديق، "**قلعة بني عياس**"، محاضرة ألقيت بمناسبة الذكرى الخمسمائة لتأسيس مدينة قلعة بني عباس"، الجمعية الثقافية نادي المقراني، قلعة بني عباس، بجاية.

[20]- صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1832م**، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2005، ص33.

ويعود تاريخ المنطقة إلى العهد الحمادي حيث كانت حلقة وصل بين القلعة وبجاية وانتقل السكان إليها من جبل عياض بالحضنة كما يذكر "ابن خلدون" وذلك بعد خراب قلعة بني حماد على يد كتائب العرب الهلاليين فاستقروا في بداية الأمر بقرية "الشواريخ" قرب "موقة" ثم اتجهوا فيما بعد إلى الشمال ناحية جبل تقربوست، ثم إلى "أزرو القلعة"[21]، حيث بنيت المدينة على صخرة كبيرة وتشتمل على الكثير من الأحياء والمصليات والمساكن.

وكانت القوافل تجوب المسالك الرابطة بين القلعة وبجاية عبر أراضي إقليم "بجانة" الحالي، ثم مع ظهور الدولة الموحدية، احتل "عبد المؤمن" واستمر زحفا على أرض منطقة بجاية متجها نحو القلعة بالمسيلة. وبعد سقوط الموحدين ظهرت إمارة المقرانيين بقلعة بني عباس التي ورثت في الحقيقة ملك بني حماد، والتي يمتد نفوذها إلى مناطق عديدة. وأدت إمارة المقرانيين (9هـ/15م) أدوارا سياسية واقتصادية مشرفة في التاريخ السياسي والعسكري والحضاري لبلاد الجزائر[22].

وتلتقي روايات المؤرخين حول نسب المقرانيين الذي يرجع إلى شرفاء المغرب الأقصى ومن الأدارسة بالضبط[23]، غير أن من المؤرخين من يرى أن أصلهم مرتبط بالأمراء الحفصيين الذين حكموا قسنطينة وهاجر آخر أمرائهم وهو "عبد العزيز" إلى قلعة بني عباس بمرتفعات البيبان[24]، غير أن هذا الرأي يعتريه كثير من الملابسات، لأن المتصفح لكتب التاريخ يجد بأن قلعة بني عباس كانت قائمة منذ عهد الأمير "عبد الرحمن" الذي وضع نواتها الأولى وتوفي عام 1500م[25]، ثم في عهد الأمير "سيدي أحمد بن عبد الرحمن الزواوي" خلال القرن 9هـ/15م أقام بها قصبة لحكمه، وعاصمة حصينة في موقع إستراتيجي متميز لا يصلها العدو إلا بشق الأنفس، وأسس بها زاوية للتعليم وتدريس القرآن الكريم وكان لها فضل كبير على الجهات المجاورة مدة ثلاثة قرون من الزمن، أي منذ دخول الإسبان إلى بجاية حتى نهاية عهد العثمانيين أي في الفترة الممتدة من القرنين 16م إلى القرن 18م،حيث كانت معظم معاهد العلم منتشرة في قراها وذلك بعد أن تراجع الدور الحضاري والعلمي والفكري لبجاية بعد سقوطها في يد الإسبان ثم في يد الأتراك في مرحلة لاحقة[26].

ومن الناحية الأثرية تكتسي المدينة أهمية كبيرة كقلعة دفاعية محصنة طبيعيا بحكم موقعها الإستراتيجي من جهة وبعد إضافة تحصينات إضافية كالسور والأبواب التي بقيت آثارها لحد الآن.

وكانت المدينة محاطة بسور تفتح عليه أربعة أبواب هي: باب أعجي في الجنوب وباب الجبل في الشرق، وباب البرج في الشمال نسبة إلى برج مراقبة في المدينة، وباب العسة في الغرب، غير أن الباب الأول لم يبق منه إلا آثار

---

[21]- عبد الرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر**...، مج6، ص ص 52- 53، 255- 296.

[22]- صالح عباد، مرجع سابق، ص33.

[23]- مزيان وشن، مرجع سابق، ص52.

[24]- Feraud (Ch), Histoire des villes…, 1872 , p194.

انظر أيضا: الورثيلاني، الرحلة، ص 36.

[25]- مبارك الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص211.

[26]- مزيان وشن، مرجع سابق، ص66.

السور، وباب الجبل في أعلى قمة من المدينة اندثر ولم يبق له أثر، اما باب البرج فمازالت آثار المدخل أي الممر فقط بدون الباب الخشبي، بينما باب العسة اندثر تماما.

هذا من حيث الإطار العام لقلعة بني عباس من الناحيتين التاريخية والأثرية والتي لم تنل حظها من الدراسات والبحث الأثري المعمق، رغم أن ما بقي من أحيائها ومساجدها ومصلياتها ومساكنها يتطلب دراسات متعددة ومن مختلف الجوانب لعلها تميط اللثام عن كثير من الحقائق التاريخية والأثرية لهذه المدينة القلعة التي لا يمكن أن ننكر دورها الإيجابي في مسيرة تاريخ الجزائر وحضارتها.

5- قلعة تمززدكت:

تمززدكت حصن زياني يبعد حوالي 25 كلم عن بجاية وتابع لبلدية القصر على بعد 2كلم شرق المدينة، ويوجد على الضفة اليسرى لنهر الصومام وبني من طرف السلطان الزياني أبو تاشفين عند حصاره لبجاية مرتين وذلك سنة 720هـ/1320م[27]، وهذا بعد أن أدرك بأن حصن بكر الذي بناه لا يتسع للعدد الكبير من الجنود التي حضّرها لمحاصرة بجاية، مما دفعه إلى التفكير في مكان آخر أكثر ملائمة من حيث الاتساع والقرب من بجاية، فوقع اختياره على الموقع الذي يعرف بسوق الخميس في حوض الصومام، والتي جمع لها العمال بمساعدة الجنود، ولقد أتم بنائها في ظرف أربعين يوما[28].

وفي هذا الشأن يذكر "يحي ابن خلدون"[29] على انه في سنة أربع وعشرين أمر السلطان "أبو تاشفين" قواده بالنهوض لحصار بجاية، وفي سنة ست وعشرين عاد "موسى بن علي بالجيوش" إلى وادي بجاية قادما من قسنطينة بعد أن أفسد بقطرها الزرع والضرع،واختط مدينة "تمززدكت" وقسم مسافاتها على الجيش فبنوها في مدة أربعين يوما، وأوطنها ثلاثة آلاف ومائتي فارس، وأمر السلطان بحمل الزرع إليها من جميع البلاد الشرقية، فشحنت مخازنها أقواتا نامية، وهناك اشتد الحصار على بجاية وأهلها، وفي سنة ثلاث وثلاثين هدمها السلطان أبو الحسن وعاد إلى مغربه.

ولقد تعددت الوقائع بين بني حفص والزيانيين إلى أن كان النصر فيها للزيانيين في 729هـ/1328م، فأقاموا تخليدا لهذا النصر قصر "بكر" أو مدينة "تاقريدت"[(*)] التي بناها القائد موسى بن علي بأمر من السلطان "أبي تاشفين" في مدة أربعين يوما، مما أجبر "أبي يحي أبو بكر الثاني الحفصي" إلى الذهاب إلى مدينة "بونة" جريحا[30].

ولقد سمحت لنا الزيارة الميدانية التي قمنا بها إلى هذه القلعة من الوقوف على عدة ملاحظات وحقائق: فمن حيث الطابع العام لأسوارها التي بقيت أطلالا قائمة (صورة 06) تتشابه إلى درجة كبيرة مع أسوار مدينة تلمسان والمنصورة، إن لم نقل صورة طبق الأصل لها، كما تتشابه أيضا مع أسوار الآثار المكتشفة مؤخرا في منطقة "قرقرة

---

[27]- عبد الرحمن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط4، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص161.

[28] - Bourouiba (R), **L'architecture militaire de l'Algérie médiévale**, OPU, Alger, 1983, p109.

[29]- أبي زكريا يحي ابن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج1، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص217.

[*]- هكذا ورد في نص عبد الرحمن الجيلالي، ولكن يغلب على الظن أنها مدينة "تاقريت" المعروفة بهذا الاسم اليوم، والتي تبعد عنها ببضعة كيلومترات.

[30]- عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ص161.

"بالعامرة" ولاية عين الدفلى، والتي يحتمل أن تكون قلعة من قلاع الزيانيين أقيمت كمراكز تحصينية لطريقهم من تلمسان نحو الشرق الجزائري، وذلك لتأمين خط الرجعة عبر هذه القلاع، وفي حالة صحة هذه الفرضية يمكننا القول بأنّ هناك طرازا معماريا واحدا موحدا يميز الدولة آنذاك، فبمجرد ظهوره في منطقة ما سرعان ما ينتشر في كل الأقاليم التي يتم فتحها من قبل الدولة صاحبة الطراز ويعطي طابعا معماريا خاصا ومميزا لتلك الدولة، وهذا ما يفسر التواصل والاستمرار والتداخل الحضاري في البلد الواحد ومن حيث علو أسوار القلعة فقدرنا ما تبقى منها بحوالي 5م، ولكن يبدو أن العلو المرجح لها يتراوح من 6 إلى 7م كما يذكر "بورويبة"[31].

أما عن سمك الجدران فقد تآكل الكثير من سمك ما تبقى مع مرور الزمن، ولقد قدرناه في أكثر من نقطة من السور بـ 1,02م، لكن السمك الأصلي له قد يتجاوز هذا التقدير بكثير، فقد يصل حتى متر ونصف أو أكثر لأن المكان أصلا بني ليكون قلعة عسكرية.

ولقد لاحظنا بأن أساس جدران القلعة غير عميقة تتراوح ما بين 80سم إلى 1م وهذا ربما يفسر السرعة الفائقة في إنجاز هذا الحصن آنذاك، كما تشير إلى ذلك كتب التاريخ، وأسس الجدران مبنية بالحجارة، أما الناحية العليا بالتراب المدكوك كما هو الحال في حصون "تنس" و "تنمل"[32]. أما عن جدران الحصن من الداخل فكانت ملبسة بالجص مع بعض الأخشاب المدمجة في السور.

يبدو حصن تمززدكت من خلال ملامحه العامة حصن مؤقت أقيم خصيصا للاستيلاء على بجاية و هذا ما يفسر السرعة في إنجازه، ومن الملاحظات أن داخل الأسوار عبارة عن مساحة واسعة مسطحة خالية من الأبنية، ولذلك فخلال أيام الحرث يتم العثور على بقايا قطع من الفخار والقرميد مما يدل على أن هناك أبنية كانت بداخله، فمن المتعارف عليه في عمارة الحصون أن تتوفر فيها غرف للجند ومصلى لهم، بالإضافة إلى المكان المخصص للطبخ، لكن كل شيء اندثر ما عدا الأسوار الخارجية وبعض الأبراج المربعة، ومن الملاحظات الأثرية في أعلى السور أن هناك بقايا ممشى الحرس الذي كان يربط بين أبراج القلعة، وهذا السور مطوق بطريق للحراسة الدورية يعلوه أيضا جدار ارتفاعه 1م، كما يذكر ذلك الأستاذ "بورويبة"[33]، ولكن لا أثر له اليوم ويذكر أيضا أن السور كان مسبوقا بخندق لا أثر له اليوم أيضا، لكن ما لاحظناه بأن سور قلعة تمززدكت يتقدمه سور أمامي استعمل خصيصا لتكسير الهجمات على القلعة .

أما عن داخل القلعة فمن خلال ما تبقى من أسوار حاولنا إعادة تصور لمخطط القلعة العام، والمرجح أن يكون بها مدخلا أو اثنان على الأكثر لأن تعدد المداخل في القلعة يعتبر نقاط ضعف في العمارة العسكرية وخطأ في التقدير الدفاعي ويمنح الفرصة للعدو من اقتحامها من هذه الفتحات، كما أن ما تبقى بها من أبراج مربعة وعددها اثنان في الواجهة الأمامية للحصن، وبقايا أثار برج في الركن الجنوبي للحصن، جعلنا نفترض بأن قلعة تمززدكت كانت

---

[31]- بورويبة رشيد، "**أسوار المدن الإسلامية في العصر الوسيط**"، ترجمة عريب مختار، مجلة الجامعة، العدد 18، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص41.

[32]- نفسه، ص41.

[33]- بورويبة، **أسوار المدن**...، ص.41.

متوجة بأبراج في أركانها، وعملا بمبدأ التماثل والتناظر التي هي سمة من سمات العمارة والفن الإسلامي افترضنا بأن يكون السور المقابل للسور الأمامي يحتوي على برجين مربعا الشكل كما يمكن أن يكون الضلعان الجانبيان بدورهما مزودان ببرج في كل سور على الأقل وهذا ما يسمح بمراقبة فعالة وناجعة من مختلف الجهات المحيطة بالحصن، وعلى هذه الأساسيات تم تصورنا الافتراضي للإطار العام لحصن تمززدكت.

ومن خلال استعراض عام لأهم الحصون والقلاع التي تنتشر في بجاية ومازالت آثارها قائمة لحد الآن يتبين لنا أهمية الخطط المنتهجة آنذاك لتوفير الأمن والأمان للمدينة، وعن المراحل التي مرت بها في العصر الإسلامي، كما توحي أيضا بتطور فن العمارة لاسيما في مجالها الدفاعي من حيث التخطيط والتقنية وطريقة الاتصال بين الحصون والقلاع والتي من دون شك أيضا رافقها تطور في استعمال السلاح الدفاعي آنذاك.

ومن الحصون الهامة التي لا يستطيع الباحث عن مدينة بجاية أن يمر عليها دون أن تلفت انتباهه هي حصن "قوراية" (صورة 07)، التي أثارت جدلا كبيرا من قبل الباحثين عن الشخصية التي ينسب إليها الحصن، هل هي أسطورة أم خيال؟ وأن حصنها يقع في أعلى نقطة من جبل قوراية المشرف على المدينة، وهو موقع إستراتيجي بالغ الأهمية من حيث المراقبة. لكن الدراسات التي يقوم بها حاليا الباحث الجزائري "مالك آيت حمودة" بالمدرسة الوطنية العليا للهندسة بباريس ستميط اللثام عن كثير من الحقائق حول هذا اللغز[34].

وباكتشافه لمخطوط حول المدينة من إعداد (Le Mercier) تضمن موقع "قوراية" قبل وصول الفرنسيين إليه على أن ضمن الملحقات المعمارية به ضريح "لالة قوراية" كما تعرف، وهو على شكل قبة في أعلاها هلال، كما أنه لم يكن بوسع الإسبان بناء هذا الحصن، نظرا للمدة القصيرة التي قضوها في بجاية، وانشغالهم بالحرب مع الأهالي آنذاك، وارجع بناء حصن قوراية إلى الفرنسيين سنة 1833م، وهذا ما جعلهم يهدمون الضريح ويردمون القبة ويمنعون الأهالي من التوجه إلى هذا المكان لزيارته خاصة ما وصل إلى الفرنسيين من أن قوراية تعاونت مع الأخوين "خير الدين وعروج" بدعوتها المسلمين إلى الجهاد ضد الإسبان، التي لم تمر سنوات طويلة من طرد المسلمين من الأندلس وسقوط غرناطة 1492م، وإن كان هذا الكلام صحيحا فإن "لالة قوراية" ستصبح بطلة تاريخية حقيقية بعد أن ظل إسمها مرتبطا بالأساطير لعدة قرون من الزمن، كما يتبين أيضا فشل الفرنسيين في محوها من الذاكرة الجماعية لأهل المنطقة الذين مازالوا يتوافدون اليوم إلى هذا المكان ويزحفون إلى قمة الجبل للتبرك بها، وهي العادة التي يحتفظ بها السكان إلى اليوم.

إن الأبحاث التي يقوم بها الباحث الجزائري المذكور حول هذا الموضوع بفرنسا يكون قد أزاح الأسطورة وفتح حقل البحث للدارسين للعمل من أجل رفع ستار النسيان، عن هذه البطلة التاريخية التي يمكن أن تصنف ضمن بطلات الكفاح الوطني من أجل الاستقلال، ومن هنا يبدأ البحث الجدي بعيدا عن الروايات والخرافات، وهي امرأة حقيقية متصوفة اتخذت مأوى لها بقمة الجبل وابتعدت عن كل ملذات وشهوات الحياة الدنيوية، وتفرغت لعبادة الله دون توقف، شأنها في ذلك شأن علماء بجاية التي مازالت أضرحتهم ماثلة لحد الآن في أعلى الربوات من المدينة.

---

[34]– عكور رضوان، **"قوراية امرأة حقيقية، وليست أسطورة خيالية"**، جريدة الخبر اليومية، الجزائر 6 جانفي 2007، ص14.

لقد خلّف الحماديون مجموعة من الحصون والقلاع على الطريق الرابط بين بجاية وقلعة بني حماد والتي ذكرها الأثري الجزائري الأستاذ "بورويبة"[35] اعتمادا على جغرافيين أمثال "الإدريسي" ولكنها اندثرت ولا أثر لها اليوم، إلا في كتب المؤرخين والدارسين للعمارة العسكرية في المغرب الأوسط[36].

6-أبواب بجاية في العهد الإسلامي:

تعتبر الأبواب ظاهرة معمارية ارتبطت بأسوار المدن الإسلامية، منذ العهود الإسلامية الأولى، و اتخذت جانبا معماريا اتسم بالقوة و الحصانة. و تعتبر الأبواب وسيلة الاتصال بين العالم الخارجي و داخل المدينة. و كان للأوضاع السياسية و الاقتصادية أثر كبير في تحصين المدن الإسلامية، و تدعيمها بأسوار و أبواب و أبراج و ذلك لتوفير الراحة و الطمأنينة و الأمن للسكان، و انطلاقا من هذا الغرض أصبحت الأبواب من خصائص المنشآت العسكرية، ثم زادت الحاجة إليها، و تعددت أشكالها، و انتشرت في معظم المدن الإسلامية.

و قد ساهمت الأبواب في تسهيل تحديد المدن، كما أدت دورا هاما في عالم الفن لما احتوته من مواد صناعية كالحديد و الفولاذ، و مزخرفة بأنواع ثمينة كالذهب و الفضة و النحاس.و قد عرفت الأبواب عدة تسميات إما نسبة إلى مهندسها، أو إلى اسم حاكم المدينة، أو المدينة نفسها، أو إلى اسم القبائل التي تسكنها، أو اسم الحرف الاقتصادية، أو حتى بعض الحدائق و البساتين التي كانت تقع بالقرب من الباب.

أما عن أبواب مدينة بجاية في العهد الإسلامي، و التي كانت منتشرة على السور الخارجي للمدينة، فلقد احتفظت كتب التاريخ بذكرها عامة، غير أن ما تبقى منها هما بابان فقط، باب البحر، و باب البنود و كلاهما في العهد الحمادي، و كانت وسيلة الاتصال بالعالم الخارجي تتم عن طريق هذه الأبواب و نذكر منها:

1- باب البحر: و هي الباب الوحيدة التي ما زالت قائمة ليومنا هذا، و التي صمدت في وجه الحروب و الزمن، و كانت السفن تمر تحت قبوها للدخول إلى المدينة.
2- باب أمسيون: تقع في السور الشرقي للمدينة، و في منتصف الطريق المؤدي إلى سيدي يحي فوق المستشفى العسكري.
3- باب المرسى: تقع في منطقة بريجة السفلى، و تعرف هذه الباب أيضا باسم باب السادات، و كانت تقع في الطريق المؤدي من برج سيدي عبد القادر إلى ميناء سيدي يحي.
4- باب البنود: و تعرف حاليا باسم باب الفوقة، و تقع في الجهة الشمالية الغربية للمدينة، و أنها كانت تفتح على الجهة الداخلية للبلاد.
5- باب اللوز: و هي الباب التي إقتحم علي بنو غانية من خلالها المدينة و استولى على القصبة، و تقع في المرتفع الذي يعرف بجبل خليفة، و تقع في الجهة الغربية.

---

[35]- بورويبة وهو بدوره عن الإدريسي، **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية**، مطبعة بيرس، الجزائر، 1957، ص ص 64-65.

[36]- عن قائمة هذه الحصون انظر: - Bourouiba, **L'architecture militaire de l'Algérie**, p85.

6- باب المرقوم: و هي التي تعرف بباب البر، و تقع فوق قبة سيدي محمد أمقران، مع المحور المؤدي إلى برج موسى.

7- باب دار الصناعة: اندثر الباب عندما استولى الاسبان على المدينة، و أعادوا بناء القصبة، و كانت تتخذ مكانا لباب القصبة الذي كان يفتح على حدائق المدينة و بساتينها و يمكن أن تكون باب القصبة التي تحدث عنها دوبيلي.

و هناك أسماء أبواب أخرى جاء ذكرها في كتب التاريخ كابن خلدون و شارل فيرو، و لكن يتعذر على الباحث تحديدها، و ذلك راجع لنقص الإشارات إلى مواقعها و منها: باب إيلان و باب الدباغين، و باب الجديد، و باب الباطنة، و كذلك باب الرواح.[38]

و نعتقد بأن عدد أبواب مدينة بجاية لا يمكن أن يتعدى السبعة أبواب، لكن أساميها عرفت تغييرات من فترة لأخرى، غير أن أقدم بابين مازالا قائمين لحد اليوم هما: باب البحر، و باب البنود اللذين نوليهما جزءا من التفصيل.

1- باب البحر:

لقد كان باب البحر من ضمن الأبواب السبعة التي تتخلل الأسوار المحيطة بمدينة بجاية أثناء العهد الحمادي، و أطلق عليها هذا الاسم كونها مدخلا رئيسيا للسفن القادمة من البحر إلى المرسى الداخلي للمدينة (صورة 08).بنيت الباب في عهد السلطان الناصر بن علناس حوالي (463هـ/1070م) في نفس الوقت الذي بنيت فيه الأبواب الأخرى للمدينة.

ففي القديم كانت السفن تحط رحالها داخل المرسى الصغير للمدينة مارة تحت قوس باب البحر المنكسرة التي لا تزال في حالة جيدة إلى يومنا هذا، و لقد شهدت الهجوم الفرنسي على المدينة في سبتمبر 1833م بقيادة الجينرال (ترزل Trezel)، و كان الفرنسيون يطلقون عليها اسم (باب سرازين- Porte de Sarazine)، و كان متصلا بالسور الجنوبي للمدينة، و يقع في منتصفه، أما الآن فهو منفصل تماما عن السور. و لقد أعطى موقعه هذا منظرا جماليا للشاطئ.

و من الناحية المعمارية، فالباب محصورة بين السورين الجنوبي و الشمالي، و تقدر أبعاده ب7,60م عرضا، و 11,90م ارتفاعا، أما عمقه فيقدر ب 4.30م ، و هو قائم على دعامتين حجريتين يبلغ سمك كل واحدة 1.10م و ارتفاعها 2,60م، و مبنية بالدبش و الآجر. و تتكون واجهة الباب من عقد منكسر يساعد في تشكيل القبوة الداخلية للباب، و هذا العقد مكون من آجر مسطح و مملوء و موضوع على شكل صفوف أفقية إلى غاية ارتفاع 1,50م تقريبا، ثم يليه عقد آخر لتشكيل القبو الداخلي.

كان يتقدم باب البحر برجان مربعان بارزان عن مستوى الجدار، ما زالت آثارهما بارزة لحد الآن، و لقد استعملا لتشديد الرقابة على الباب، ثم لإعطاء الباب القوة أكثر بتدعيمهما له، أما الفتحة الخاصة بمرور البواخر، فيوجد انكسار في أحد جوانبها ليسمح بدخول البواخر دون اعتراض سبيلها أثناء الدوران (شكل 03).

و يعلو أعلى الباب قديما طريق للمراقبة الدورية فوق القوس الذي يعلو الباب مباشرة[39] و كانت هذه الباب بعلاقة مباشرة مع برج شوف الرياض الذي شيد في مرتفع استراتيجي و الذي يشرف على ثلاثة أبواب رئيسية يقوم بحراستها هي: باب البنود، و باب البحر، و باب المرسى.[40]

لقد روعي في عمارة باب البحر كثير من الجوانب المعمارية لتأدية الغرض الدفاعي الذي من أجله أقيم الباب، فجولفان على سبيل المثال يرى بأن العقد المنكسر الذي يعلو الباب يتكون من قطع آجر مسطحة، و مملوءة و موضوعة بشكل أفقي إلى ارتفاع 1,50م، ثم فيما بعد يتحول إلى عقود متداخلة لتشكل القبوة الداخلية للباب التي ترتكز على قائمين بارزين عن مستوى العقد.[41]

2- باب البنود:

تقع في الجهة الشمالية الغربية، و تعتبر المدخل الرئيسي للمدينة و التي تؤدي إلى مقر السلطان حين استقبال وفوده القادمين أثناء الاستعراضات، أو أيام وصول القوافل، و أيضا لحضور بعض المراسم و الحفلات.

تعتبر بابا معماريا يحيط بها من الجانبين برجان الأول خماسي الأضلاع و هو أصيل في البناء، و الثاني مربع القاعدة أضيف في العهد الفرنسي، لكن شكله الأصلي كان على غرار البرج الأول، و هذان البرجان بارزان عن مستوى الجدار، و يقومان بدور حماية مدخل الباب و الممر الذي يليه(صورة 09).

و تتكون الباب من طبقة متناوبة من الدبش، و الحجر، و يعلو البرجان أماكن لرمي القذائف من الآجر المسطح الذي يعلو الجدار بمقدار 2م.أما الباب فتتكون من عقد نصف دائري مبني من الحجر يعلوه جدار سميك عبارة عن صفوف من الدبش المرصف و المنتظم يتناوب مع الحجر المسطح، و يعلو الباب ممشى الحرس الذي يسمح باتصال البرجين مع بقية السور.و تعرض الباب في الفترة الفرنسية إلى بعض التغييرات حيث فتحت باب جديدة إلى جانب القديمة، أما أحد البرجين المضلعين اندثر و عوض بآخر مربع .[42]

و لعل من أهم المظاهر المعمارية الملفتة للنظر في عمارة البابين المدروسين اكتنافهما لبرجين على الجانب، و هذه ظاهرة قديمة لها وظيفتها و منافعها في العمارة الدفاعية، فالأبراج أنواع: منها المربعة المألوفة في العمارة العسكرية ببلاد المغرب، و منها التي تتخذ شكل نصف الدائرة، أو ثلاث أرباع الدائرة، و تكون مدمجة ضمن جدار السور، و تستعمل للحراسة، و منها ما يستعمل للإشعار بقدوم الخطر.[43]

أما عن الأبراج الأسطوانية المدمجة مع السور، فهي ظاهرة معمارية قديمة وجدت في قصر الحير الشرقي الذي شيد من قبل الخليفة هشام في 110هـ / 729م في العهد الأموي[37]. أما في العهد العباسي تتجلى في بناء مدينة

---

[39] بورويبة ، أسوار المدن....ص.45

[40] خلاصي، مرجع سابق، ص..305

[41] Golvin ; Le Maghreb Central a l'epoque des Zirides. Edition, Art et Metiers Graphiques, Paris. 1957, p.193.

[42] Naima Abderrahim ;Opcit.p.98.

[43] Colin (GS) ; « Burj ».in.Encyclopedie de l'islam .Tome1.Paris.1975.p.1355

[37]- عفيف بهنسي، **الفن الإسلامي** ، الطبعة الثانية، دار طلاس للدراسات و الترجمة والنشر، دمشق، 1991، ص 253.

بغداد من قبل المنصور في 145-147هـ/5-762م حيث يظهر نظام جديد من البوابات ذات المداخل المنكسرة، أو ما يعرف في العمارة العباسية بمصطلح (الباشورة)، على عكس العهد الأموي الذي كانت بواباته مستقيمة[44] و هذا النموذج للبوابات المنكسرة قد استعمل في الأبواب الأربعة التي تتوج السور الخارجي لمدينة بغداد، و منها مثال باب خراسان الذي تعلوه قبة من الآجر، و يذكر (كريزول Creswell) بأن نظام الأبواب ذات المداخل المنكسرة نظام عرف في تحصينات العهد البيزنطي بشمال إفريقيا، و هذا النظام يتكرر في العهد الفاطمي في باب زويلة بالقاهرة و التي أسسها بدر الجمالي[38] بجعله كسر في الباب حتى يعيق قوة هجوم الجيوش[45] .

و لعل المتأمل في العمارة الإسلامية عبر العصور، يجد بأن أبواب المدن الإسلامية محصنة، و خير مثال عن ذلك باب قصر الأخيضر ببغداد في نهاية القرن 2هـ/8م الذي يعتبر نموذجا رائعا للأبواب الدفاعية في المدن الإسلامية بالقبو الذي يعلو مدخل الباب، و يحيط به من الجانبين برجان على شكل ثلاث أرباع الدائرة، و خلف قبو المدخل، يوجد عقد آخر.ويعلو مدخل الباب غرفة صغيرة للحراسة.

و نعتقد في رأينا بأن أبواب مدينة بجاية تكون قد تأثرت بالأبواب الفاطمية سواء في المهدية أو في القاهرة و ذلك من حيث شكلها، أو طابعها العام المعماري، بل هي استمرار للعمارة الفاطمية. و ما دامت أبواب قلعة بني حماد قد اندثرت و لم يبق لها أثر يسمح لنا بمقارنتها بتلك التي بقيت في بجاية و لذلك استدللنا بهذا الطرح.

أما بالنسبة للأبراج ذات ثلاث أرباع الدائرة الموجودة في باب البنود، فهناك دلائل عنها في بلاد المغرب،منها برج خلف الفتى في رباط سوسة الذي يبدو في رأينا أن يكون قد تأثر بتلك الأبراج الموجودة في العمارة الأموية و العباسية، و يغلب على الظن أن الفاطميين قد اقتبسوا شكل هذا البرج من رباط سوسة، ثم أثروا به على العمارة الحمادية و ما تلاها، حيث يبدو هذا الشكل فيما بعد في باب القرمدين بتلمسان، و في أحد أبراج المشور بتلمسان أيضا في العهد الزياني، فالحضارة الإنسانية استمرار و تواصل، و تاثر و تأثير.

إن ما تبقى و ما اندثر من أبواب بجاية يسمح لنا بالتعرف على طبوغرافية المدينة، و شكلها العام، أما أسامي الأبواب تبين لنا التشابه القائم بين مثيلاتها من مدن أخرى بالجزائر.ففي بجاية و تلمسان كان هناك باب يسمى باب الجديد، و كذلك في طبنة و القاهرة و الجزائر.

أما عن شكلها المعماري، فيوحي لنا بتقدم فن القتال عند المسلمين، فباب الفتوح و باب زويلة بالقاهرة على سبيل المثال تحتوي على أبراج مستطيلة و مستديرة على السطح و هي أكثر فعالية من الناحية الدفاعية، و قد وضعت مرامي النبال بطريقة بارعة، و هي متقدمة جدا بما يسمح لها الاستغناء عن شرفة خارجية لوقوف الرجال، و من خلال الثقوب الموجودة تحت قوس الرمي.

---

[44] Golvin (L) ; « Note sur les entrées en avant corps et en chicane dans l'architecture musulmane de l'Afrique du Nord ». in Annales de l'institut d'etudes orientales.Tome XVI.Année 1859.

[38]-بدر الجمالي (405-487هـ/1014-1094م) وزير المستنصر الفاطمي، وطّد أركان الدّولة، شيّد باب زويلة بالقاهرة.

[45] Creswell(KAC) ; « Bab ».in.Encyclopedie de l'Islam.Tome1.1975.p.854.

7-أسوار بجاية:

يعتبر السور عاملا أساسيا في المدن الإسلامية، و هذا بعد خوف الحكام على أمنهم، بعد الانتفاضات التي عقبت الفتوح الإسلامية، و هذا ما جعلهم يشيدون الأسوار حول المدن التي كانوا يشرفون عليها. و كان لهذه الأسوار أبواب تحمل أسماء الجهات الأربع، أو أسماء أمكنة، أو اسماء أشخاص، أو أسماء حرف، أو ورشات عمل، أو أسماء حدائق و أشجار كما سبق الذكر، و كانت بعض هذه الأسوار مزودة بشرافات في أعلاها، و بأماكن خاصة للدفاع، و هذه التحصينات كلها دليل كاف على حرمة المدينة الإسلامية[46].

و بجاية من المدن التي ما زالت تحتفظ بأسوارها التي تعود للفترة الحمادية الأولى 1067م، عندما أصبحت المدينة عاصمة ثانية للدولة الحمادية، إذ كان الغرض منه حمايتها ببناء سور جديد خلافا للسور الروماني القديم.و لقد استقدم الناصر آلاف العمال الذين أتموا بناء السور في بضعة أشهر، و كان متوجا بأبراج و التي ما زالت آثارها ناحية البحر (صورة 10) و هذا السور بني بطريقة تدريجية من القمة إلى الأسفل و لكنه يختفي أسفل جبل قورايا في الصخور شديدة الانحدار.[47]

و عن مساره، يعتقد الأستاذ بويحياوي بأنه قد أخذ نفس مسار السور الروماني القديم، بل احتواه في الكثير من الأحيان، و زاد عنه في الناحية العليا للمدينة، و بذلك يتحدد الفضاء العمراني الحمادي بصورة أوسع و أشمل[48].

يصعد السور متدرجا مع الجبل في شكل مثلث ضخم حتى يقتحم صخور قورايا الوعرة، من مكان يبلغ ارتفاعه 660م عن مستوى البحر. و يمتد السور الذي يمكن مشاهدة آثاره حتى اليوم في خط يساير تعرج الشاطئ و يحيط بالمدينة من جهة البحر. أما من الناحية الغربية، فالسور تبدو آثاره في المنحدر السفلي لسيدي محند أمقران إلى غاية البحر مرورا بالقصبة الموحدية إلى غاية الميناء الروماني القديم. و من سيدي محند أمقران يصعد باتجاه جبل قورايا (صورة 11).

أما في الجهة الموازية للبحر، فهناك سور مواز به أبراج يربط بين السورين النازلين من قمة قورايا إلى غاية البحر، و يمتد السور على مسافة 5400م، و يختلف ارتفاعه من موقع لآخر حسب طبوغرافية الموقع و ارتفاعه، و يتراوح سمك جدران السور في بعض المناطق من 90سم إلى 2م، و في أماكن أخرى ما زالت محتفظة بشكلها الأصلي، يصل ما بين 1,70م و 2,50م.[49] أما عن ارتفاعه، فمن الصعب تقديره نظرا لتحطم معظم الأسوار، و لكن تقديرنا العام له في أكثر من مكان أنه يصل ما بين 4م و 6م ارتفاعا. و كانت تعلو السور شرافات، و يتوج أعلاه ممشى الحرس. و كان السور قديما متوجا بابراج مستطيلة القاعدة يتراوح أبعادها من 4م طولا إلى 3م عرضا، و علوها يصل إلى 6م. و يذكر بورويبة بأن هذه الأبراج كانت تبعد عن بعضها البعض مسافة تقدر ب25م و تتخذ أشكالا مستطيلة، و تبرز هذه الأبراج عن مستوى السور و هذه الظاهرة موجودة في العمارة

---

[46] بورويبة، أسوار المدن.....ص...39

[47] Bourouiba ;Architecture militaire….p.80.

[48] بويحياوي، **تطور العمران الإسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط**، رسالة دكتوراة دولة، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2004 ص..255

[49] Bourouiba opcit.p.80.

المغربية منذ العصر الإسلامي.فسور المهدية البحري كان مزودا بمائة برج، و السور البري بستة أبراج اتخذت أشكالا معينة منها المربعة و المستطيلة و المستديرة و المضلعة.[50] و كانت هذه الأبراج مزودة بوسائل الاتصال كالمرايا العاكسة التي كانت في برج شوف الرياض، و التي كانت موزعة على باقي الأبراج الأخرى في مختلف الجهات، و التي يمكن بواسطتها الإبلاغ الفوري بقدوم الخطر على كل أطراف المدينة.أما في الليل فكانت الإشارات تتم بواسطة إشعال النيران بطريقة متقنة، و هي من الطرق الإعلامية الدفاعية السائدة كثيرا في العصر الإسلامي، و على هذا الأساس نجد بأن الأبراج أطلق عليها مصطلح منارات و ذلك للوظيفة المنوطة بها و هي إشعال النيران، كما كانت تحتوي أيضا على فتحات موزعة على جهاتها تستعمل للمراقبة.

و أسوار بجاية كما يذكر دوبيلي[51] مبنية بالحجر و الدبش و الآجر في تعاقب مع طبقة الملاط و غير سميكة، و في بعض الأبراج كانت طبقة الآجر تتراوح 4سم سمكا تتناوب مع طبقة من الدبش و التي يقدر سمكها بحوالي 20سم، و هذا الدبش عبارة عن دقائق الآجر المغطى بطبقة من الجير و الإسمنت حيث تختلط الحجارة المنحوتة مع الآجر.

إن وجود السور في مختلف المناطق المحيطة بالمدينة دليل على أن الحماديين قد اهتموا بالجانب الدفاعي قبل غيره، فكان تحديد الفضاء العمراني و تأمينه هو الأساس في مدينة بجاية.

إن موقع بجاية الجبلي هو الذي حدد الشكل العام للسور الذي ساير الموقع من قمته إلى أسفله، و هذا ربما يتشابه مع السور الحمادي بالقلعة بالمسيلة الذي يشبه فخذ خروف كما يسميه بورويبة، و هو يحاذي سهل وادي فرج، و يصعد إلى جبل تقربوست، ثم ينزل متبعا خط القمة في اتجاه جبل قرين، ثم يتجه نحو الشرق متعديا الوادي، و ملتويا فيما بعد نحو الجنوب الشرقي متبعا وادي فاضل أحد روافد وادي فرج. و هذا يبين مدى مقدرة الحماديين في إتباع تقنيات تتماشى و الموقع المنحدر، و هي إتباع نظام البناء التدرجي و هذا لإيجاد نقاط تكسير الثقل في السور كلما نزل من الأعلى إلى الأسفل خاصة بعلوها الشاهق الذي يحمل ثقلا معينا يستوجب على المعمار كيفية التعامل معه، و إن كنا لا نعرف الشيء الكثير عن ارتفاع أسوار المدن الإسلامية في العصر الوسيط باعتبارها العمارة المستهدفة بالدرجة الأولى قبل اقتحام المدينة، و لذلك نجد معظم الأسوار قد تحطمت ناحيتها العليا، كما أن هناك بعض الأسوار مكونة من جدار واحد، وأخرى من جدارين مثل أسوار بغداد و الرقة و اشبيلية و المهدية و طرابلس و فاس الجديد و هنين و غيرها.[52]

إن ما تبقى من أسوار بجاية يتطلب جهدا كبيرا لإعادة تصور ما ضاع منها، و ذلك لتحديد الإطار العام للمدينة، و كيفية توزع الأبراج على واجهاتها، بالإضافة إلى الأبواب التي تفتح عليها، هذا مع التطرق لبعض تقنيات البناء و المواد المستعملة في بناء السور، بالإضافة إلى علوه و سمكه، و في حال توفر كل هذه المعطيات،

---

[50] بورويبة، أسوار المدن.....ص..42

[51] Debeylie (GL), La Kalaa des Beni-Hammad, une capitale Berbère de l'Afrique du Nord au XI siècle, Ernest Leroux, Paris, 1909p.106.

[52] بورويبة، أسوار المدن....ص.41.

فإنها تضفي على الدراسة جانبا هاما من جوانب العمارة الدفاعية بالمغرب الأوسط، والتقنيات الدفاعية المستعملة في تلك الفترة، و مقارنتها في أماكن أخرى من العالم الإسلامي.

خاتمة

يتضح من خلال استعراض نماذج من الاستحكامات العسكرية ببجاية و نواحيها، من أسوار و أبواب و قلاع و حصون و أبراج، بأن المدينة إضافة إلى تحصينها الطبيعي، فهي محصنة أيضا بوسائل دفاعية مستحدثة يصعب اختراقها و دخول المدينة خاصة في أوج قوتها و تألقها الحضاري، و من جهة أخرى توحي هذه الاستحكامات بمدى تقدم العمارة العسكرية في المغرب الأوسط من حيث تخطيطها و مواد بنائها و إستراتيجية إقامتها.

إن الشروط التي يجب أن تتوفر في مدينة من المدن الإسلامية قد روعيت إلى أبعد الحدود من حيث توفرها و بإتقان في مدينة بجاية و نواحيها، بدءا باختيار الموقع الذي يشترط بأن يكون حصينا بطبيعته كأن يكون على هضبة وعرة من الجبل، أو باستدارة بحر أو نهر مما يجعل النيل منها أمرا صعب المنال. و كل هذه العوامل المجتمعة جعلت من بجاية و قراها الريفية قلاعا محصنة يسهل الدفاع عنها.

و تكشف الآثار الدفاعية التي ما تزال قائمة في بجاية على تطور الأساليب الدفاعية و الهجومية و آلات الحصار المستخدمة في مختلف العصور الإسلامية التي مرت بها بجاية.

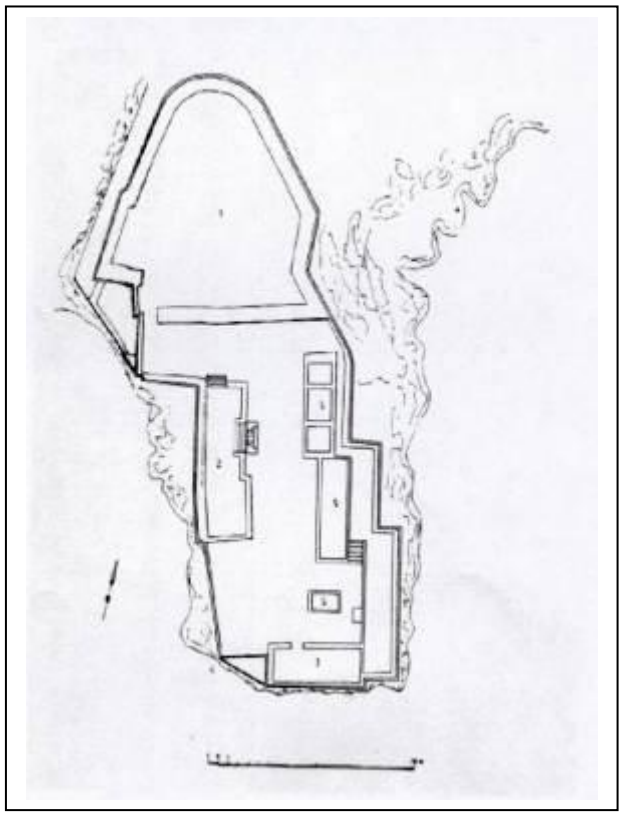

شكل 1: مخطط عام لبرج سيدي عبد القادر ببجاية (عن نعيمة عبد الرحيم)

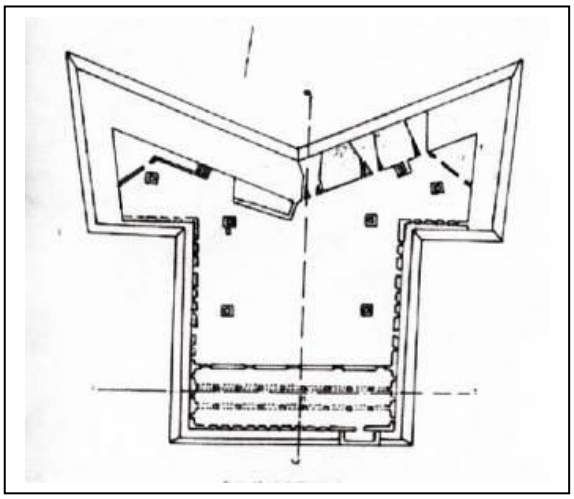

شكل 2: مخطط عام لبرج موسى ببجاية (الطابق الأرضي) عن (نعيمة عبد الرحيم)

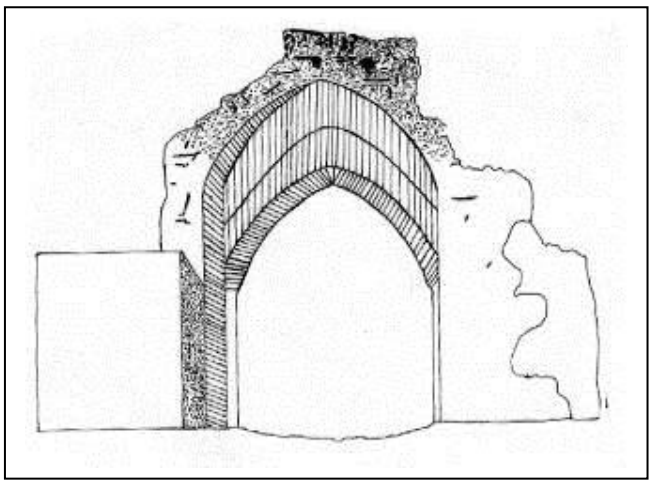

شكل 3 أ : رسم تخطيطي لواجهة باب البحر

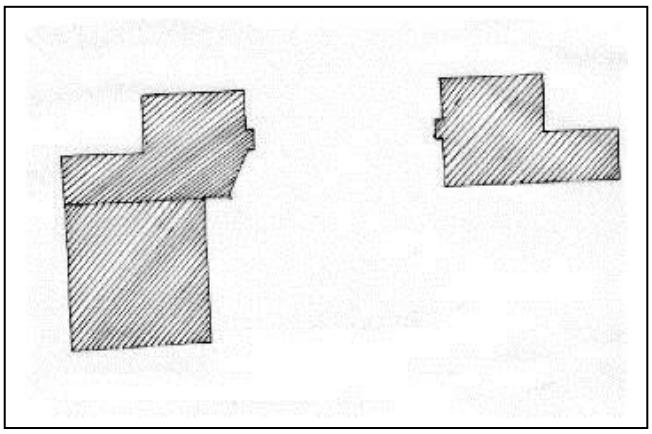

شكل 3 ب : مسقط أرضي لباب البحر ببجاية سلم 200/1

ص.1

ص.2

ص.3

ص.4

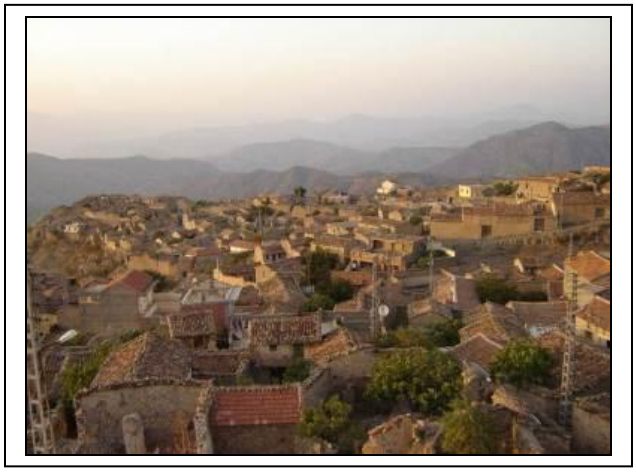

ص.5

ص.6

صورة 1: الواجهة الخارجية لسور القصبة ببجاية - صورة 2: مدخل قصبة بجاية
صورة 3: برج سيدي عبد القادر حاليا صورة - 4: منظر عام لبرج موسى ببجاية
صورة 5: منظر عام لقلعة بني عباس ببجاية صورة 6: أسوار قلعة تمززدكت ببجاية

ص.7

ص.8

ص.9

ص.10

ص.11

صورة 7: حصن قورايا ببجاية
صورة 8: باب البحر ببجاية حاليا
صورة 9: باب البنود ببجاية اثناء العهد الفرنسي
صورة 10: بقايا السور جهة البحر
صورة 11: بقايا السور الحمادي أسفل جبل قورايا

الخِطَاب السِّيَاسِي: الخصائص واستراتيجيات التأثير

الدكتورة: راضية بوبكري
جامعة عنابة – الجزائر

1 – مفهوم الخطاب السياسي:(Discours Politique)

الخطاب السياسي خطاب إقناعي، حجاجي، يتخذ من اللغة، والسياسة فضاء له، تتجلى من خلالهما خصائصه الإقناعية، والحجاجية، والانسانية. فهو كما يعرفه **فيليب بروتون** (Philippe Breton)،...نشاط إنساني يتخذ أوضاعا تواصلية متعددة، ووسائل متنوعة، ويهدف إلى إقناع شخص، أو مستمع، أو جمهور ما، بتبني موقف ما، أو المشاركة في رأي ما...[1]. كما أشار **شايم برلمان** (C Perelman) **ولوسي تيتيكاه** (L Tyteca)، إلى أن موضوع الخطاب السياسي، باعتباره خطابا إقناعيا....هو درس تقنيات الخطاب، التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم، بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم...[2].

فقد عرف هذا المصطلح في تحديد مفهومه العديد من الاختلافات، البائنة بين الباحثين والدارسين، بين قائل إنه خطاب متميز عن الخطابات الأخرى، له خصائصه ومميزاته الأسلوبية التي تجعل منه فضاء واسعا للحجاج، **وممارسة الفعل السياسي**، من خلال التلاعب بالكلمات. وبين من يرى أنه خطاب، كباقي الخطابات، لا يتميز عنها في شيء، إلى درجة اعتبار كل خطاب هو بالضرورة سياسي...[3].

لكننا نعتقد أن أهم ما يميز هذا الخطاب هو **ارتباطه بالسياسة**، ارتباطا وثيقا، علما بأنّ الخطاب عنصر شفاف ومحايد، وهو بحدّ ذاته موضوع الرغبة، فهو ما نصارع من أجله و به، وهو السلطة التي نريد الاستيلاء عليها... [4]، وكما هو معلوم فإن السياسة تتأسس على «...الواقعية،...وعلى الحياة السياسية، وعلى الممارسات السياسية، وعلى التفكير السياسي واللغة السياسية، وعلى التنظير السياسي... »[5]، وربما هذا الارتباط يجعل من الخطاب السياسي تحديدا يخفي أكثر مما يعلن...

فليست كل مناطق الخطاب مفتوحة على مصاريعها بالدرجة نفسها، فمنها ما هو ممنوع علانية (كالرغبة/الجنس، السلطة/السياسة) والبعض الآخر مفتوح تقريبا، من دون إغفال أنّ الخطاب الحقيقي يتعلق بأمرين هما الرغبة/السلطة..[6].

كما أن الخطاب السياسي يختلف عن الخطابات الأخرى، ليس من حيث البناء اللغوي، أو الأسلوبي، بل من حيث طبيعة لغته التواصلية، التي تبحث عن متلق متمرس حتى يفك شفرتها، ما يعني أن اللغة السياسية رغم أنها تواصلية تعتمد الوضوح والمباشرة للإفهام، والإقناع، والتأثير في المتلقي، إلا أنها تحتاج إلى تأمل لما يتسم به الخطاب السياسي من الدلالات الموحية واللجوء إلى الغموض باستعماله للاستعارات خاصة. مما يجعله في حاجة إلى التأمل، والفهم والتأويل، وهي **خاصية براغماتية** يلجأ إليها الخطاب السياسي حتى يكون **أكثر تأثيرا في المتلقي**.

لأن الغموض أو التضمين، ولجوء الخطاب السياسي، إلى الأسلوب غير المباشر، يساعد على تحقيق التواصل، من خلال التأثير في المتلقي، لأن الهدف منه هو الإقناع، الذي تساهم في تحقيقه هذه المعاني الضمنية غير المباشرة، ففي بعض الأحيان الأفكار والمعاني التي يُعمل المتلقي فكره للوصول إليها تبقى راسخة ويكون تأثيرها أشد وقعا، من المعاني الواضحة المباشرة. فالمتلقي في الخطاب السياسي لا يفهم دائما ما يرمي إليه المرسل، ويبقى ذلك وقفا على السياق الذي أُلقي فيه الخطاب.وربما هذه الخصائص هي ما يجعل الخطاب السياسي يتميز عن غيره من الخطابات.